محمد المخزنجي

رشق السكّين

كتاب قصصي

دار الشروق

عندما يطبق حزن أيامنا هذه على عنقى بيديه السوداوين، أنفلت منه وأفر إلى فرحى الأخير: بنتى. أحملها بين ذراعى، وأقذفها عاليا فى الهواء تزقزق، زقزقة العصافير، وألقفها تهدل فى حضنى، هديل الحمام. وأضمها فيتلاشى العالم من حولنا.

• • •

إن قصص محمد المخزنجى هى فيض خبرة قصاص فيلسوف شاعر يجمع بين المعرفة العميقة والقيم الإنسانية والاجتماعية الرفيعة، وما أكثر ما ننتظره منه من إبداع متجدد..

د. محمود أمين العالم



6 221102 018937

دار الشروق
www.shorouk.com

محمد المخزنجي

رشق السكّين

كتاب قصصي

دار الشروق

المحتويات

هذه اللحظة

مدينة الاختناق

سفر الشجر

بشر الأقفاص

حيوانات وطيور

هذه اللحظة

هذه اللحظة

انقطع التيار، فجأة، وأنا فى الشارع .

سادت الظلمة، وأحسست أننى ـ على غير انتظار ـ أنبعث فى هذا الليل .

بدا العالم حولى كأنما ولد من جديد فى هذه اللحظة . بدا طازجا وأليفا خلال صفاء الظلمة، حتى إن هواء الليل البارد قد استحال نسيما يرطب جبهتى، ويملأ صدرى بالانتعاش .

شعرت على نحو مفاجئ أننى أفتقد الحياة، أفتقد الحياة حقا منذ أمد بعيد، وغشانى اليقين أننى كنت أحيا سنينى الأخيرة ميتا على نحو ما .

شعرت بحاجة هائلة للبكاء المحرق، ووددت لو أجرى صارخا ما أستطيع، دون أن يتعرف على أحد فى هذه الظلمة .

لكننى اكتشفت المدى اللانهائى من الراحة، فى الغناء .

راح صوتى يتعثر، حتى سلست «الدندنات»، ثم انبثقت فى فضاء الروح مقاطع الأغنيات الحلوة البسيطة، البعيدة، التى ظننتها ماتت فى نفسى من قديم .

أخذ أدائى يشجينى كلما جلوت صوتى بالغناء، وكنت أتمادى فأشعر كأنى أفلت من مراقبة ما، كأنى أعتق من شىء يكبلنى، وأنطلق خفيفا خفيفا فى رهافة الظلمة، وبراحها.

انتبهت إلى نفسى وقد بلغ شدوى حد ارتفاع الصوت، فسكت متلفتا، أتحسب استغراب الناس الماضين - كأشباح - فى الظلمة حولى.

لكن هنيهة خجلى تحولت إلى دهشة عندما أرهفت السمع، واقفا فى ظلمة الشارع الكبير.

سمعت ما يشبه همهمات خافتة، ثم تبينت النغم فى تداخل الأصوات، وكأن أفراد فرقة موسيقية - مختفية فى مكان ما - يضبطون آلاتهم قبيل ابتداء العزف.

رحت أميز اختلاف الأصوات والأغانى كلما مرت بى أشباح الناس فى الظلمة: كل شبح بصوت، وكل صوت بأغنية، وكل الأغانى كانت مفعمة بالشجو والشجن.

عدت أواصل سيرى والغناء، وكان صوتى يرتعش، وتروغ الأغانى، كلما أوجست عودة التيار بغتة. ■

الرجل بالشارب والببيونة

كان واقفا عند المدخل، بقميص أبيض، وبنطلون أسود، وفى رقبته ببيونة حمراء.

بهدوء، وحرص - حتى إننى لمحتها صدفة - تسللت اليد النحيفة قادمة من ورائى وأنا واقف أمام المبولة، ووضعت - دون أن يصدر عن ذلك صوت - الطبق الوردى المثلث الصغير وبه قطعة ورق التواليت المطوية بعناية متعمدة، بأعلى ذلك الحاجز الرخامى فى متناول يدى اليمنى، وانسحبت مسرعة، كفأر مذعور.

كانت حركة خاطفة، محاذرة، بلا صوت، كشأن حركات الخدم جميعا، ومع ذلك أفزعتنى، فاحتبس التيار، وشعرت بالدهشة والحنق.

وأضمرت، محنقا، ألا أترك له نقودا بالطبق كما يبغى، وكان ضروريا أن أنهى ما بدأت، فدخلت التواليت، ورددت الباب خلفى.

لم أكد أبدأ، ثانية، حتى عاد الاحتباس. لقد لمحت هذه اليد، مرة أخرى، تتساحب - من تحت عقب الباب - لتضع نفس الطبق، وبه قطعة ورق التواليت المطوية.

استدرت، في ومضة خاطفة، مغتاظا، ساديا كما لم أتصور نفسي أبدا. ودست هذه اليد.

أحسست بحراك اليد، اللين المخنوق تحت حذائي، فاقشعرّ جلدي وارتجفت، عندها تمكنت هذه اليد من الفرار، وتركت طبقها المثلث الصغير.

بغيظ، ونفاد صبر - كأنني أباري كائنا أبكم غير بشري - طوحت ساقي، وركلت بالحذاء ذلك الطبق المثلث البغيض، فطار خارجا من تحت عقب الباب.

وكنت أنتظر عودة هذه اليد.

عادت اليد أشد حذرا، وأكثر إلحاحا وبلادة:

أدوس، فتراوغ. أصيدها، تهرب، وتمكنَتْ أخيرا - بحركة بارعة اللجاجة - من وضع الطبق، وفرت خارجة.

عندما فتحت الباب وجدته واقفا، ولفت نظري تغضن قماش البيبونة الرخيص وياقة قميصه المتسخة البالية، وكنت مقررا أن أبلغه ازدرائي، ولو من خلال نظرة.

لكنني عندما نظرت في وجهه - وقد كان يرسم على فمه ابتسامة، وضح أنه يظل يكررها طوال اليوم - ارتعدت.

لقد كانت صورته تطابق صورتي أو تكاد، وكأنني واقف أمام مرآة بارعة:

نفس الوجه، نفس الحجم، باستثناء الشارب الذى كان له، والملابس، والبيبيونة.

وأسرعت - مصعوقا - أخرج من المرحاض، إلى الشارع، تستبد بى رغبة واحدة: أن أتأمل ملامحى - بتفرس - خلال أول مرآة أجدها فى طريقى. ■

تصوير خارجى

يمكنك الآن أن تعدى الكاميرا للتصوير ، حيث سيتعين عليك - لتسجيل هذا المشهد - دون أن نوقف السيارة - أن تدورى ، وتلتفتى دورات وجيزة، ومجرد التفاتات صغيرة، وأنت فى مقعدك وراء الزجاج، وربما يكون من المستحسن أن ننزل زجاج النوافذ لتكون الرؤية أنفذ. فى هذه الأثناء سأكون قد فتحت جهاز التسجيل لتأتى الأصوات متزامنة مع الصور.

انظرى، إنهم هم الذين يظهرون هناك - على امتداد الطريق - حيث تتشكل من احتشادهم فوق الأسفلت الأسود، وهم فى الملابس التى يكثر بينها لون قماش الخام، غيمة خفيضة عكرة البياض على الطريق. والبناية البيضاء - البناية البيضاء المصفرة - التى تظهر بين جذوع الأشجار الداكنة وفوق الذؤابات الخضراء المغبرة هناك، هى بالضبط البناية التى يأوون إليها.

لقد قرأت على يافطة البوابة - التى لم يبق منها إلا أثر مصاريع نزعت من زمن - كلمة: دار، وخيل لى أننى قرأت - ربما - كلمة مثل: الإصلاح، أو الاستشفاء، أو التقويم.. شىء بهذا المعنى، إذ إن اليافطة حالت من أثر كونها فى العراء سنين عديدة.

عندما نقترب منهم، سترينهم وقد أخذوا يتحركون متزاحمين في كتلة تسد الطريق. حينئذ سيتوجب علينا ـ أو نضطر إلى ـ الإبطاء من سرعة السيارة. في هذه اللحظات ـ والسيارة تشق كتلتهم حولنا ـ ستعملين أنت بالكاميرا فيما يكون جهاز التسجيل مفتوحا.. ستستعرضين وجوها شديدة الانفعال، عرقة ومعروقة، بأفواه فاغرة، وعيون غاضبة ملتمعة بحدة. ستقتربين من ملامح هجومية لبشر، بينهم العاري وشبه العاري، في أسمال من قماش الخام وبقايا الملابس القديمة التي كانت عليهم عندما جيء بهم، حفاة أو منتعلين أحذية، تبعا لقدم عهدهم أو حداثتهم بالمكان. سيكون هذا كله قرينا، بالطبع، لما يخرج من أفواههم، والذي لن نتبينه إلا ضوضاء، عندما نعمل ـ فيما بعد ـ على ترشيح الأصوات فيها سنتبين: مفردات ما.. شتائم، كلمات مغلولة، أشعار غضب، أغان حماسية، أناشيد صاخبة وهمهمات فيها توحش.

ها هم،

ها هم،

إننا ندخل في كتلتهم!

لا. لا. لاتخافي. البثي بقرب الزجاج. أو افتحيه. إنهم لا يهاجمون. اعملي بالكاميرا. الخوف سيفوت عليك المتابعة. نعم نعم إنني قد فتحته. لا تخافي. فتحت جهاز التسجيل. إنهم يحيطون بالسيارة. نعم لكنهم لا يهاجمون. حسنا إنك تصورين

من هذا الجانب. خذى هنا أيضا. هنا فى مواجهة الزجاج الأمامى. حسنا حسنا ارجعى إلى الجانب. تابعى. تابعيهم بالكاميرا ونحن نخلفهم وراءنا. نعم من خلال الزجاج الخلفى.

. . . ياه؟! تلتقطين أنفاسك كأنك طالعة من غرق. لم تصدقى أنهم غير خطرين. إنهم فعلا لا يهاجمون رغم تزاحمهم، رغم جمهرتهم الصاخبة والغضب الصريح. كانوا فيما مضى يهاجمون، يعترضون السيارات المارة على هذا الطريق. كانوا يستعملون الحجارة والقضبان الحديدية والعصى وأفرع الشجر، والضعاف منهم كانوا يرشون بالماء أو يعفرون. ذلك فيما مضى، لنفس الأسباب التى تجعلهم يفعلون ما يفعلونه الآن: تأخُّر الطعام أو انقطاع المياه، بالإضافة إلى الرغبة فى تصفية حسابات قديمة لم تصف بعد، إذ سيقوا إلى هذا المكان عنوة.

نعم. نعم كانوا فى الماضى يهاجمون، إلى أن ظهر بينهم ذلك الرجل. ذلك الرجل كان يصرخ فى العربات وهى تمر، يصرخ فقط وهو فى قلب تزاحمهم، ويحث الآخرين على الصراخ. كان يقظ العينين، غير تلقائى النظرات مثلهم. ثم إنه كان يلح عليهم أن يفعلوا مثله، وعندما راحوا يفتحون أفواههم ويصرخون كانت أياديهم تكف عن الحركة.

انظرى،

انظرى الآن. انظرى وقد ابتعدنا عنهم: ثمة سيارة أخرى تجاهد وهى تشق تزاحمهم حولها. وها هى ذى تعبرهم، وهم يصرخون. ■

مدينة الاختناق

- فى حضرة الجذام
- مدينة الاختناق
- بعد الضرب

فى حضرة الجذام

عندما دفعت الباب ودخلت طالعتنى صورهنّ . . كنّ فى استكانة يقعدن متجاورات على الدكة المستطيلة لصق الحائط ، ثم إنهن عندما لمحننى أنظر إليهن شرعن يتكورن ، كأنهن يردن لو يغطسن فى الجلاليب السود ليخفين شيئا لا يحببن أن يراه أحد .

كنّ بالذات يدارين وجوههن والأيادى .

لم أكن أرتدى المعطف الأبيض لكن الممرضة كانت تعرفنى ، فأفسحت لى مكانا ، ولما كانت تنادينى بلفظة «دكتور» رأيتهن ينهضن ويتحلقن مكانى فى تزاحم . يكشفن أياديهن والوجوه ، ويقتربن لأرى ، ويطلبن منى «صرفية الأسبوع» من الدواء .

كانت الأكف كتلا شائهة من اللحم ترفد جذامات صغيرة من بقايا الأصابع التى تساقطت أطرافها . كانت كسلاحف صغيرة تتحرك أرجلها ببطء راعش ، وكانت الوجوه كتلا شائهة أيضا ، وقد تآكلت بعض ملامحها ، أو ترقشت بندوب غامقة تعتور الباهت من القروح والتسلخات .

رحت مندهشا أتهامس والممرضة ، فأفهمتنى أن عيادة الصدر

التى أعمل بها قد انتقلت إلى الجانب الآخر لتأخذ مكانها عيادة الجذام للنساء فى هذا اليوم .

وعندما كنت أستعد للذهاب رأيتهن يضيقن الحلقة من حولى ، وكانت وجوههن ملتوية بغضب ، وشرعن يسألننى لماذا أمضى ، ولما كنت أحاول إفهامهن ، لم يصدقن ، واستنتجن أننى أتيت «للفرجة» عليهن «بالاتفاق» مع الممرضة التى كنت «أتوشوش» معها ، وأخذن فى صخب يحاولن ألا يفلتننى ويكشفن أجزاءهن المجذومة ليلمسن بها الأماكن العارية من جسدى . وكنت أنكمش لأغطس فى ملابسى ، وأراوغ بوسطى وقدمى حتى أفلت من القروح والنِّزَز بالتحديد ، لكن واحدة منهن صرخت وهى تزيحهن لتواجهنى ، وكنّ من خلفها ينفجرن فى تصخاب كالثغاء وهن يوجهنها لمحاصرتى : «قدام ـ شمال ـ يمين ـ جنب» ، وكانت تطاردنى وأنا أهرب إلى وراء ، يمين ، شمال ، وإلى جنب .

ثم أخذن يحركنها باتجاه الممرضة أيضا .

أخذت أتخبط بجسد التى تحاول الإفلات معى ، ورحت أحس بتفصد العرق يبلنى إثر هذا التخبط ، وكانت مراوغتنا معا تشبه الرقص ، وكان هجوم المرأة المجذومة التى تحاصرنا يشبه الرقص كذلك ، ولعلها أحست أنها ترقص ، بل أحست أنها ترقص ، إذ بدأت تتلوى فى مكانها وهى واقفة ، لا تتقدم نحونا ولا تهاجم ، والمجذومات الأخريات كففن فجأة عن تحريضها علينا وشرعن يوقعن لها بالأكف وقد تبدلت سحناتهن الشائهة لتحمل انبساطا شاحبا راح يزهو ، ويتحدد ، مع التهاب الأكف الموقعة واشتعال الرقص . ■

مدينة الاختناق

كان ناس هذه المدينة كسمائها التى تبدو خيمة من غبار لا يتحرك تحبس تحتها هواء ساخنا مكتوما يكاد أن يزهق الروح .

كانوا يرتدون جلابيب ضافية طويلة وأغطية للرءوس فلا يكاد البدن المخفى يُعرف أو تُعرف ملامح الوجه الملثم ، ولم تكن هناك وسيلة لتمييز النساء من بين الرجال إلا بلون الملابس ، حيث كان الرجال يرتدون الأزرق بينما النسوة يرتدين السواد ، وقررت ألا أمكث ، لكن وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة كانت لا تتحرك خارجة من هذا الصهد إلا فى الصباح التالى ، ولقد كنا فى الظهيرة ولكم أحسست بالاختناق .

فى الحجرة التى دفعت فى واحد من سريريها كثيرا برغم حقارة البناء اكتشفت نفس ملامح المدينة . لم تكن بالحجرة نافذة واحدة ، وكانت جدرانها البالغة الارتفاع مطلية بلون أصفر قابض ، تتخلله نقوش فجة معتمة بلون آخر قابض لعله كان «الأخضر تراب» ، وكان السقف الجهم بعيدا جدا وقد غُرزت به لمبة صغيرة تبعث بضوء كاب ، إذ كانت بقايا الذباب تكاد تغطيها بالأسود المطفأ ، وكنت خائفا لو أغلق باب الحجرة علىّ فأختنق ، ثم إنهم أخبرونى

أن سرير الحجرة الآخر محجوز لشخص أخرس من سكان المدينة، وكان هذا غريبا ويخيف أكثر، فوضعت مطواتي مفتوحة تحت وسادتي وكنت اضطرابا خالصا، كلي، إذ لاحظت أن عمال الفندق يتلصصون عليّ أيضا.

عندما دخل دون أن يتكلم الذي حزرت أنه الأخرس، رد باب الحجرة ببطء ثم أغلق من الداخل وأمّن - بدون ضجة - إغلاق ترباس داخلي لم أكتشفه إلا لحظتها، وقبلما يستدير تحسست المطواة تحت الوسادة وسحبت يدي فارغة، وقد حددت موقع السلاح بحيث يمكنني التقاطه سريعا لو تطلب الأمر ذلك، وكنت أراقب الرجل وقد وقف يواجهني بجانبه.

مد يده بورقة لأتناولها، وقرأت فيها مندهشا: «أرجوك لا تتكلم لأجلي ولأجل نفسك». ولم أسرع إلى المطواة لأني لاحظت ارتعاش يد الرجل، ثم إنه راح فيما بدا يغير ملابسه.

عندما أماط اللثام ورفع العمامة رأيت وجه امرأة ناعم الخطوط ثم إن الشعر الطويل الناعم انسدل محررا على الكتفين، ولما نضى الجلباب الأزرق رأيت مشدين يحزمان الصدر والأرداف بفظاظة حتى إن نفور النهدين والردفين تم بصوت عندما أزيحت المشدات، وبينما كنت أفتح فمي مشدوها استدارت المرأة ورأيت في عيونها دموعا حبيسة. وقد قالت لي عندما لاحظت ارتعاشي ألا أخاف، وأضافت تؤكد لي أن «الكل يعرف» وكررت تطمئنني ألا أخاف.

كنت كالمنوم أُقاد إلى الغوص في دفء قيعان غريبة.. أغوص

وأطفو، أغوص وأطفو، بينما يداى تتشبثان بمحارتين هائلتى النعومة، وفمى يزدحم بحمرة المرجان. وكنت فى وشيش الخدر أتأرجح فوق مويجة عطوف وأنا أسائل نفسى: هل أبقى فى هذه المدينة وليس معى إلا مطواة؟ أم أكتفى بخطبة عصماء وأذهب، أم أذهب وأقول خطبتى العصماء فى بر الأمان، أم أمكث صامتا طالما أن عشائى يأتينى بغير انقطاع؟

وعند الذروة التى يهوى بعدها الناس كانت المرأة تشدنى إليها بالأظافر، وتغرز أسنانها فى لحم كتفى.. حتى يكون بكاؤها بغير صوت. ■

بعد الضرب

توقفت الغارات، وفُتحت الطريق المارة بأطراف المطار.

شُــــدّت «الوايرات» ـ السلك ـ إلى أوتادها فى الأرض، وارتفعت بالونات التأمين المعدنية الممتلئة بالغاز الخفيف فى سماء المطار، ورحنا نحن المتطوعين نوغل فى الدروب، بحــــذر، للتطهير.

كانت هناك حفر بحجم العمائر، وبيوت للفلاحين دكت، وماشية بلا حصر تناثرت إثر موتها المذعور فى الحقول المحترقة، ووجدنا هذا الشىء.

هذا الشىء.. إذا كانت يدك صغيرة مثل يدى، فكورها.. هكذا إذن: بحجم قبضة صغيرة كان، وكان بلون القمح الذى سوته الشمس. كقبضة صغيرة حنطية، مطبقة، ومشرعة، وتميل إلى الأمام قليلا وهى ترتكز ـ بما يشبه المعصم المضغوط ـ على أرضية حوض فى هيكل عظمى.

هل كانت أنثى؟!

كان الحوض وسيعا، وكان الشعر الأنثوى يتكوم حول الجمجمة كهالة من سواد معفر.

هل أدركها الانفجار فطرحها على الظهر؟!

كان الهيكل مطروحا على ظهره، وعلى امتداد ذراع ممدودة كانت الراحة العظمية مطبقة على أذن وعاء لبيع الحليب.

هل كانت خارجة من قريتها مع الفجر لبيع حليبها فى المدينة القريبة وأدركها الانفجار؟

كان الوعاء مضغوطا كرقعة من صفيح تلتزق بالأرض إلى جوار الهيكل المبيضة عظامه بعد أن تجردت من اللحم الذى تحلل وتحدر ترابا زيتونيا كمخمل على نعومة العظام.

رحنا نرفع الهيكل الذى لبث متماسكا رغم عريه وجفافه، وتحته راعتنا بصمة جسد أنثوى، كانت تحتفر الأرض بأدق التفاصيل التى صنعها الضغط المروع ـ إثر الانفجار ـ على الجسد الذى لا بد أنه تصلب لحظتها فرسم الأكتاف الصغيرة الناعمة الاستدارة، والخصر الناحل، والأرداف الرحبة، وامتلاء الأفخاذ، وكانت الخضرة لابثة لم تمت تحت هذه البصمة. وكانت القبضة الحنطية قد زاغت من هيكل العظام ونحن نرفعه، وظلت ناشبة فى الأرض حيث مكانها الذى قدرناه بأعلى اتصال الفخذين، أسفل البطن، وعند المنتصف.

«امرأة خضراء» ـ قال أحدنا وهو يشير إلى البصمة، وقال ثان وهو يشير إلى الشىء الذى يشبه القبضة الحنطية «إنه الرحم. أو بيت الولد»، وقال ثالث ـ وقد كان طبيبا يؤكد قولة الثانى ـ وهو ينظر ساهما إلى الأفق: «صحيح.. ثلاثة أشياء لا تتحلل بعد الموت سريعا كغيرها:

«الوليد الذى لم يرضع بعد .

والشهداء فى جفاف الصحارى .

ورحم الأنثى البكر» .

وبينما كان يفيض ، شارحا لنا قوله ، كنا نمضى بحذر ، لننتظم مع فرق التطهير الأخرى . ■

سفر الشجر

■ سفر الشجر

■ رشق السكين

■ البشر الثلاثة

سفر الشجر

سمعت كأنما الريح تصفر فى حقل قمح توسطته، وأنا مستغرب أن السنابل لا تهتز ولا تميل، فأخرجت منديلى أرفعه عاليا، ولما لم يخفق قلت إن شجيرات القمح تغلى قلقا.

رأيت الشجر معتم الخضرة وكنت أسمع منه هسيسا، فخطر لى أن الهواء يتفلّت من بين الأغصان، ولما لم أر غصنا يتحرك، ولا ورقة تسقط، أعليت يمينى فلم تتلق من ذاك الهواء المزعوم هبة، قلت إن الشجر يتميز غيظا.

اختفت الأصوات جميعا غير صوت كأنه الرنين المكتوم أو صرير العجلات تدوس رمادا، فأيقنت أنى فى قاع البحر، عندها تراءت لى الأسماك مغتبطة تجرى، وتبدت الأعشاب فى حركة كتوم تلتم على نفسها، وببطء تتفرق، ثم تلتم من جديد، ومن جديد تتفرق، فقلت إن هذه الأعشاب مستفزة.

كأنى فى ماء غائص أو أنى فى الهواء تعلقت، أو أنى أمشى فى حقل من قمح دارس. كنت أفكر فأسمع لتفكيرى صوتا يتساءل:

لماذا شجيرات القمح تغلى قلقا؟ والشجر من الغيظ يتميز؟ ومن ذا الذى أفزّ أعشاب القيعان؟ ولما لم أجد إجابة وطأت صدرى شدة الحيرة.

وكأنى بالشجر يصطف يواجهنى، يتأبط ظله، يحتمل الثمر، وينطق بالصوت، يكلمنى فأفهم قوله، إن الطير عيره بالوقوف، بينا هو - الطير - يرحل ويسافر، وكذا قال القمح إن الجنادب والضفادع وديدان الأرض عيرته بالوقوف وهى ترحل وتسافر، ولما لم أسمع أعشاب القيعان فهمت أن السمك عيرها بالوقوف وهو يرحل ويسافر.

كاقتلاع الظفر من اللحم رأيت الشجر ينتزع جذوره من مغاصها فى الأرض وهى تئن، ثم رأيت الشجر والشجيرات والأعشاب جحافل من ظل وخضرة تمضى خارجة من البحر تاركة ضفاف النهر هاجرة الحقول مخلفة بأماكنها حفرا موحشة وجهامة من الندوب.

أبصرت الشجر يمشى على جذوره فكأنها أقدام عارية راحت تتآكل تتآكل، واخضرار الورق يشحب يشحب ثم يصفر ويدكن، وأخيرا يساقط الشجر ميتا بُعيد مشاوير قصار جد قصار.

هالنى السمك الميت يغطى سطح الماء، والطيور تهوى هامدة من حالق، والحيوان المعشب ينفق يتبعه آكل اللحم. ثم إن سواد الغربان غطى زرقة السماء حينا بعده انكشفت لما راحت الغربان تهوى ميتة هى الأخرى.

رأيت الدنيا صحراء وأنا هائم فيها أعاني من خوف وحَر وتيه وجوع، لكني لما رأيتها هناك هناك وراء محيط الرمال نخلة واحدة وحيدة بجذع سامق ورطب وخضرة جريت إليها غير مصدق مكثها بمكانها، وكنت مشوقا إلى الظل والثمر أبكي، من فرط الشعور بالوحشة ومن شدة الرجاء أبكي، هاتفا: ليتني أكون في حلم أو ليتها لا تكون السراب. ■

رشق السكين

لم أكن ولدا مغفلا وأنا منكفئ فى الظل، تحت تعريشة العنب، أمام الدار، أجلو سكينى بقطعة صخر البازلت، وأرهف حدها بخليط التراب الناعم والماء. لا تلفت نظرى خضرة الأوراق تكاثفت، ولا تغرى لسانى حلاوة الطعم تكتنزها العناقيد.

لم أكن ولدا مغفلا، ولمعة السكين تأخذنى، تشفى غليلى لامتلاك سلاح. لأن المرء ـ حتى فى عمر الطفل الذى كنت ـ لا يعدم الأعداء. فالأعور الذى حاول إيذائى، وأنا أصيد القنافذ من بين المقابر فى ليلة البدر، ما زال فى المقابر يكمن. والجلف الذى ألقى بى من فوق شجرة التوت، وأنا أجمع من ورقها الأخضر لدود الحرير طعاما، ما زال تحت ذات الشجرة، مع ثور الساقية يدور. والولد الشرير، الأكبر منى فى العمر وفى الجثة، والذى دأب على قهرى بالضرب وسرقة أشيائى، ما زال بى يتربص.

سكينى صارت جاهزة، والمرء لا يعدم الأعداء والتدريب على السلاح واجب. فكرت، وقررت:

لتكن يا جذع شجرة العنب (شاخصا) عليه أتدرب، ورحت أتدرب: أقف على مبعدة، وأرمى ـ بكل قوتى ـ سكينى. تدور

حول نفسها منطلقة فى الهواء، وفى لحم الجذع الطرى المتماسك لشجرة العنب، بطرفها ترشق.

. . ها هو ذا وجه الأعور، يتراءى لى على الجذع، أرمى سكينى . . فى عينه الأخرى، ترشق . . يصير أعمى! وأنا بذلك أطرب.

وها هو ذا الجلف، أخاله على الجذع يتسلق، أرشقه بسكينى، يهوى منهبدا، فأتهلل.

وها هو ذا الولد الشرير، وكأنه من براعتى فى رشق السكين، صار يرتعد . . يهرب مختبئا فى جذع العنبة، فأعاجله بسكينى، يرتمى على الأرض - مرشوقا - يزحف، وأنا فى الهواء - من فرط البهجة - أقفز، وأطير.

أطير أطير، ثم أهبط، وعندما تلمس قدماى الأرض - فى يوم تال - أصفرُّ وأشهق . . أصفر من الفزع، ومن شدة الحسرة أشهق: ما كان جذع شجرة العنب غير جذع لعنبة، وأنا من كثرة رشق السكين فيه ذبحته. آه ذبحته.

ذبحت الساق، فانقطع عن الأوراق والعناقيد العصير . . صارت الأوراق هشيما أصفر تذروه الريح، فتعرت الأغصان، وذبلت متعفنة العناقيد، وانحسر الظل عن رأسى. انحسر الظل، إذ ماتت العنبة، بينما الأعور مازال فى المقابر، والجلف تحت شجرة التوت، والولد الشرير يتربص بى . . لا يزال. ■

البشر الثلاثة

عندما كنت فى العاشرة كانت أمنية حياتى أن أترك المدرسة وأعمل ماسحا للأحذية، ذلك لأننى كنت أذهب بأحذية البيت التى نحتاج لإصلاحها والتلميع إلى محل «الأترتاوى» العتيق الغائر فى الأرض كالبدروم، وهناك كان يعجبنى المكان الذى ننزل إليه ببضع درجات حجرية عبر الشارع الترابى، وكنت أستمع بشغف إلى البشر الثلاثة الكهول الذين يجلسون فى أماكن المسح أمام الكراسى الدوارة. كنت أسمعهم يتكلمون بغرام عن مهنتهم ويفضلونها على مهن: الطب، والنجارة، والهندسة، والتنجيد، وسائر المهن، ويحكون دائما الحكايات التى تؤكد على أهمية أن تظل الأحذية سليمة نظيفة لامعة لأن جواهر الناس تُعرف من مظاهر أحذيتهم. ثم إننى خلال الطريق إلى البيت كنت أتأمل المعجزة التى أتوا بها عندما أطالع وجهى فى مرايا الأحذية التى ذهبت بها كالحة منطفئة وعدت بها لامعة تبرق.

وفى العشرين، كنت أذهب إلى محل «الأترتاوى» بعد أن رُصف الشارع بالأسفلت وارتفع، وكان علىّ أن أنحنى وأنا أدخل من الباب الذى تقلص كثيرا، وأهبط على الدرجات الحجرية التى

ازدادت عددا، ثم أجلس على أحد الكراسى الدوارة فيخالطنى شعور بالخجل لبعض الوقت وأنا أمد قدمى لإنسان يمسح حذائى. وكنت أعجب للبشر الثلاثة الذين اشتعل فى رءوسهم الشيب، وتزاحمت فى وجوههم الغضون، لم يبرحوا أماكنهم، بينما كان يجلس على المكنة ووراء السندان شبان فى عمر أصغر أطفالهم. وكانوا يُكبرون مهنتهم لا يزالون، ويشيرون إلى عتبة باب المحل التى ارتفعت فأعتمت المكان مؤكدين على أهمية الهدوء لإنجاز كل الأعمال التى تحتاج إلى عناية، ومستحسنين الضوء الضعيف الذى: يريح الأعصاب.

والآن صرت فى الثلاثين وقد تعودت تلميع حذائى بالمحل الذى ألفته منذ الطفولة، لكنه تغير بعض الشىء فقد ارتفع الشارع وارتفع بعد أن رُصف مرات ومرات ووُضعت المكنة والسندان على الرصيف، ورُصت الكراسى للزبائن أمام الباب الذى صار فرجة ضنينة يتدلى منها العمال ليهبطوا إلى جوف المحل، ويخرجو منها زحفا على بطونهم، وكنت وأنا أمد يدى بفردتى الحذاء فى جوف المحل المظلم ألمح رءوسا ثلاثة وحواجب وشوارب كلها بيضاء، تهتز فى الأماكن الثلاثة التى تواجه الكراسى الدوارة فيما مضى، وأسمع أصوات البشر الثلاثة التى تضعضعت، دون أن تخطئ نبراتهم الأذن، وهم يتكلمون عن الهدوء الجميل الذى تقدمه لهم عتبة باب المحل التى صارت بارتفاع سور، وعن الظلمة التى عندما تألفها العين ترى ما لا يمكن رؤيته فى ضوء النهار الساطع. ■

بشر الأقفاص

- بشر الأقفاص
- « ١٣ »
- يوم للمزيكا
- النوافذ

بشر الأقفاص

كنا خمسمائة من البشر المحبوسين الذين طال حبسهم. نستيقظ عندما تتفتح أبواب الزنزانات التى كنا نسكنها بالقسر، ونتحرك بضجر فى العنبر المغلق علينا، لا ندرى ماذا نفعل بالنهار الذى يثقلنا بحجر نوره الكسيف، ووجدنا أنفسنا فى هذا الصباح خمسمائة إلا واحداً. كان الواحد هناك حيث تعلق على مبعدة أدوار خمسة، نتطلع إليه فى عليائه وننتظر منحته المبهظة التى وعدتنا بطرح حجر نهار كامل من جبل السأم الذى نحمل.

تبادلنا النداء ونحن نجمع أنفسنا، واكتشفنا فى أصواتنا رنة مغتبطة مثل التى تجلجل فى أصوات الأطفال عندما ينادى بعضهم البعض لرؤية حاو جوال يقدم ألعابا مسلية غريبة بالمجان، وكنا بلا وعى نفسح لواحدنا المعلق رقعة وسيعة من البلاط الصلب ليرتطم بها عند سقوطه، وكنا نطريه بالقول: إنه مجنون. . إنه مجنون.

كان يتأرجح على ارتفاع عشرين مترا وقد تدلى من شبكة السقف الحديدية بحبل حسدناه عليه وأبدينا إعجابنا بأن يكون قد استطاع غزله من خيوط البطاطين ثم جدله، ثم تخبئته برغم هجمات التفتيش الدائمة. كان طرف الحبل مربوطا حول وسطه،

والطرف الآخر يتعلق بخُطاف ـ بهرنا به أيضا ـ فى أحد قضبان الشبكة، وكنا نلمح فى إحدى يديه المجذفتين فى الهواء نصلا يلمع. ورحنا ننتظر أن يبدأ بقطع الحبل الذى يتدلى به، ليهوى.

أخذنا نتجادل بارتعاش لم يخل من تشوف وغبطة، لم نكن نعرف كنهها، فى السبب الذى دفعه إلى التفكير فى الانتحار، وكان العساكر المحبوسون معنا ـ لحراستنا فى العنبر ـ يدفعوننا لنتفرق وينهالون على جسومنا بمجالد قصيرة فى أيديهم، فنفر أمامهم ككلاب ضالة جائعة، تُهش بغلظة، لكنها تصر على الرجوع لتلتم حول رمة، وتنهش. وعندما بدأ واحدنا المعلق يقطع فى الحبل بالسكين الملتمع النصل فى يده وجدنا أنفسنا نصطخب بجزع مبالغ فيه، وكانت نداءاتنا إليه أن يكف رخوة، ونوقن أنها لن تصله، وعندما تساقطت علينا من عنده قطرات ساخنة ران علينا صمت متسائل.

قال بعضنا إنه يبول، وأخذنا نؤكد لأنفسنا أنه إذن لن يتراجع، ونبرهن بحماس على ذلك ونستعرض أسماء الذين كانوا محبوسين معنا فى انتظار الإعدام، وكيف أن الواحد منهم كان لا يكف عن التبول طوال الليلة السابقة على التنفيذ، وقال البعض بعد أن تذوقوا القطرات وشموها: إنه لا يبول. ثم أدركنا أنه يبكى.. حيث توقف عن قطع الحبل وراح يمسح وجهه بكفيه. أخذنا نؤكد بعد ذلك أنه أيضا لن يتراجع ونقول إن الحياة تصعب عليه وهو يُودِّع. وكنا نتشبث بالتأكيد أنه سيكمل، ونقول إن

الحياة تصعب على الرجال إلى درجة البكاء أيضا وهم يودعون، وأصبح رأينا فيه أنه رجل، أنه رجل، رجل، وكذا ننتظره.

غيرنا الرأى فيه بإجماع ونحن نعود للصخب فجأة ونؤكد لأنفسنا أنه بان امرأة، بان امرأة.. امرأة إذ كان «يلعب بنا»، وقد راح يتسلق قطعة الحبل التى تحمله ليصل إلى قضبان شبكة السقف، وينتزع الخطاف ويأخذ فى تبديل يديه ورجليه على قضبان الشبكة حيث يبلغ الحائط، ويهبط، وعندما أصبح وسطنا كنا نبصق فى وجهه بغيظ، ونسأله لماذا بدأ ذلك إذن؟! لماذا بدأ ذلك؟ لماذا؟

ولما اكتمل عددنا ثانية: خمسمائة، عدنا إلى التمشى ببطء ونحن نمضغ ضجرنا، وندفع يائسين أمامنا بحجر النهار الثقيل. نرفع رءوسنا إلى السقف لنتأمل قطعة السماء الجهمة الممزقة، ونحشر رءوسنا بين قضبان بوابتى العنبر المغلقتين أبدا. لعلنا نرى الشجرة الوحيدة بالفناء تهزها الريح، أو تحمل عصفورا نزقا يطير عنها ليقر فوق الأسوار، ويزقزق. ■

« ١٣ »

على السكة الكالحة بلون الأسمنت جاءت قدما «١٣» . . .

على السكة الكالحة بلون الأسمنت كانت الأقدام تجيء ، فأنظر ساقين ، ثم إنسانا ، ثم إن الإنسان يدخل ليقف وراء نصف باب معلق ، ويقرفص ، فيصير قدمين وساقين مثنيتين بينهما عورة .

كانت السكة تمر بين صف الزنزانات الانفرادية والسور المسيج لعنبر «التأديب» ، وكانت زنزانتي في آخر الصف حيث تقع قبالتها حجرة دورة المياه الملتزقة بالسور . كان العالم عندي بابا موصدا ، وجدرانا أربعة وسقفا واطئا به كوة مغطاة بالخيش ، ولولا ثقب في الباب الموصد لباتت أيامي الانفرادية ليلا متصلا ، لهذا تعودت عيناي تبادل الالتصاق بالثقب . أرى أقدام الناس وعوراتهم مكرها ، وأرى النهار يطلع على السكة الكالحة . فأتصوره وهو يطلع في الدنيا البعيدة .

على السكة الكالحة ميزت قدمي «١٣» ، ثم ساقيه ، وعندما اكتمل أمامي رأيته محنيا ونحيفا كفرع يابس من شجرة عجوز . كان يمشي متعثرا كطفل يبدأ الخطو ، ويتحسس لا شيء أمامه ،

بينما السجان ينخزه برأس هراوة فى الظهر والقفا، ويأمر بالإسراع.

كان وجه «١٣» قد تغير كثيرا عن الوجه الذى جاء به إلينا. أصبح صندوقا من الصفرة يتلون بزرقة الكدمات. وكانت عيونه الراجعة تشخص بسهوم خالص إلى البعيد.

«١٣»؟ لم أكن أعرف له اسما. كان السجان يناديه: «يا ١٣»، وفى أحيان كثيرة: «يا ابن الكلب» فأسميته لنفسى «١٣» أو «المغنى» فقد كان دائم الرغبة فى الغناء. كان صوته المشدوخ مثل عظمة مكسورة يؤنس وحدتنا بمواويل يطلقها فى الظلمة. فتنداح، وتلمس القلب الذى كانت تهزه أبسط المواويل:

«آه يا زمان الصفا على القليب مريت

من بعد ما كنت حلو الطعم ليه مريت»

كان يغنى المواويل وكأنه يبكيها، يمس قرح الصدر الفائض، فيأتى القرح على القرح، لا يصبحا قرحين، بل قرحا واحدا محلقا وكبيرا كسماء غائمة تظللنا جميعا برغم اختلاف القضايا.

كانت مواويله ما تكاد تنطلق حتى تُذبح بنصل سكين صوت السجان الثالم: «اكتم يا ١٣». . «اكتم يا ابن الكلب»، وفى المرات التى حاول فيها صوته أن يتواصل كنا نسمعه يتقطع وسط إيقاعات فظة لا بد أنها كانت بجزم البيادة تركل لحما شحيحا يضم عظاما متعبة.

رفع «١٣» وجهه ودار حول نفسه ببطء يبحث عن الشمس فوق ظهر دورة المياه وهى تصعد ولا ندركها إلا بارتماء ظل السور على السكة، ولم يتم دورته إذ أوقفه السجان بلكمة فى العنق، وبلكمة فى الفك أدخله دورة المياه.

دخل «١٣» وورارب نصف الباب المعلق، وقرفص ليصير ساقين مثنيتين بينهما عورة، واندفع رشاش بوله، وكان صوته يندفع:

«حط الحمام على عش الوليف ولا طار

صابه العيار كسر الجناح ولا طار»

واندفع السجان يدهم باب الدورة الموارب، وأخذ يركل المغنى، ويأمره بالسكوت.

ناح الصوت المشدوخ يوقف هجمة السجان بالخنوع:

«حاضر ح اسكت.. حاضر.. حاضر»، ثم عاد يوارب الباب وكنت أسمع لهاثه، ورأيته تحت الباب الموارب: ساقان تقومان فتظهران حتى الركبتين، وتتعريان، ثم تعودان إلى القرفصة، ثم إن اليد كانت تهبط وتحفن شيئا من تحته، وترتفع، ثم تهبط خالية. وأخذ يكرر ذلك، ثم إنه بدأ ينهض واقفا وأخذ يصدر صوتا كالعواء ينهيه بنشيج باك وقهقهة ملتاثة.

وركل السجان باب الدورة، واندفع، لكنه سريعا تراجع.. وتراجعت للحظة أنا الآخر عن الثقب إذ رأيته، «١٣»، يظهر

واقفا عاريا «وملطخا» وجاحظ العينين فى ذهول ، ورافع الذراعين لينقض .

وعندما عدت إلى الثقب رأيت «١٣» يتقدم بطيئا متحفزا من السجان الذى أخذ يتراجع مذعورا بظهره، ثم إنهما راحا مشتبكين يقعان ويتدحرجان بعيدا . . بعيدا حتى بانت السكة الكالحة بلون الأسمنت خالية . . خالية للحظات وهى تنتظر أقداما أخرى لم تكن لتكف عن المجىء . ■

يوم للمزيكا

ونادى المنادى: «عمبااار.. كله يسمع.. المزيكا وصلت»، وكان المنادى المسجون مبسوطا على غير العادة. وكان المسجونون الخمسمائة على أهبة الاستعداد للانبساط بهذا النداء، ودوى العنبر بهدير صيحة طفلية: «هـ اااه». كلهم كانوا يصيحون كالأطفال: القتلة، وقاطعو الطريق.. وتجار المخدرات، والقوادون، والنشالون، والمحتالون، لصوص الدواجن، وحتى المتهمون بالتسول.. كلهم صاحوا كالأطفال: «هـ آااه». وكانت ملامحهم تشكل صورا لأطفال كبار بوجوه غريبة تحمل آثار الجروح الغائرة القديمة وظل الشحوب فى الرطوبة والعتمة.

كانوا فى أبهى حللهم وقد زال عنهم ليوم واحد هذا الزى الأزرق الكالح للمحبوسين، حيث بدوا كأطفال ذاهبين إلى سوق العيد: هذا يتباهى بقميصه ذى الجيوب على الصدر، وهذا بحذائه اللماع، وذاك بلاسته الحريرية، وكانوا يتقافزون بتصايح، ويجرون وراء بعضهم البعض فى ضحك، ويتخطفون الطعام.

عندما قابلتهم فرقة السجانة تأمرهم بالعصى أن ينتظموا طابورى قرفصاء فى الحوش ويصمتوا، أطاعوا بطيبة بدت غريبة عنهم،

وقرفصوا فى طابورين يواجهان طابورا من أطفال ملجأ الأيتام المسكين بآلات الموسيقى النحاسية، وصنع العساكر كردونًا يحيط بالطوابير الثلاثة، ووقف المأمور فى الصدر يخطب: هنأ بالعيد وأعطى تعليمات بالهدوء وحفظ النظام، ولم يكن أحد يسمعه إذ تعلقت عيون المساجين بوجوه الأيتام، وكانت تُسمع الهمسات فى طابورى القرفصاء:

ـ لى عيّل شكل اللى فى الطرف ده تمام.

ـ وأنا ابنى ما يفرقش عن الوله السفيّف ده إلا فى اللون.

ـ الوله اللى هناك ده شبه أخويا الصغير بلبل.

ـ يا جدع الواد اللى ماسك الطبلة ده الخالق الناطق من أكبر أولادى.

وكان أن انتهى المأمور من خطبته، وابتدأ العزف. . .

* السلام الجمهورى، وكان الصمت والعيون مشدودة إلى العيون.

* لحن الله أكبر، وكان الصمت والعيون مشدودة بالعيون.

* لحن خوض بينا البحر، وكان الصمت أيضا، وأيضا كانت العيون مشدودة بالعيون وإليها، ثم رن جرس التليفون فى مكتب المأمور فانصرف.

وحالما غاب المأمور جرى اتفاق سريع بين المسجونين والسجانة وفرقة الأيتام، وتغير اللحن إلى «ميتا أشوفك يا غايب

عن عيني»، هلل المسجونون، ونهضوا هاجمين على فرقة الأيتام يحملونهم بآلاتهم فوق الأكتاف، ولم يرتبك اللحن بل تناسق يعلو في حمية، وكان العساكر يضربون بضحك، ضربا خفيفا «لحفظ النظام»، وبدأ حوش السجن يتحول إلى مرقص صاخب والمسجونون الراقصون يحملون الأيتام الذين راحوا يخلصون في العزف بغبطة، على حين تدس في جيوبهم عطايا المسجونين من علب السلامون، وقروش قديمة التواريخ، وأمشاط، ولعب مصنوعة من الخشب والورق الملون، وكان يعلو اللحن الحزين الذي ابتهج، وكان يعلو صياح المسجونين الملتاثين بفرحة الرقص، وكان العساكر ينتقلون إلى الغضب والضرب بشدة «حتى لا يسمع المأمور»، ومع ذلك كان يبدو ألا سبيل لتوقيف اللحن أو الصيحات أو الرقص . . أو حتى بعض الدموع التي راحت تُذرف خلسة في صخب المزيكا. ■

النوافذ

فى الخامسة ـ ساعة التتميم فى السجن ـ يدخل المسجونون زنزاناتهم آتين من ردهات العنبر، ومن فوق الكبارى والسلالم الحديدية بين الأدوار، ومن الحوش، والورشة، والمخبز، والمغسل، والمطبخ، ويكون عليهم أن يمكثوا وراء الأبواب الموصدة حتى الصباح التالى.

بعد الخامسة تتقطع سبل الاتصال بين البشر المسجونين والبشر المسجونين، فلا يتبقى غير النوافذ. . عشرات النوافذ المتشابهة المتراصة فى حائط الأحجار العالى، تجاور بعضها بعضا، وتعلو بعضها بعضا. ثم إن نوافذ سجن الرجال تواجه ـ بزاوية متسعة ـ نوافذ سجن النساء القريب.

نوافذ نوافذ نوافذ، والنوافذ تصفحها قضبان، والقضبان متقاطعة، والفجوات بين تقاطع القضبان لا تُنفذ إلا الأيادى والأصوات.

تنطلق الأصوات تنادى، وتمسك الأيادى بالقضبان وتمتد، وترفرف فى الهواء الطليق بين النوافذ، قصة حب:

ـ يا واد يا عربى ى ى ى

ـ بت يا بط اااه

ـ يا واد يا و ااد

ـ يا واد يا اللى با حب ااك

ـ امتى أشوفك يا عنيه

ـ امتى أشوفك إنت

ـ شف إيدى

ـ فين يا بت؟ أيوه شايفها. شوفى إيدى أنا ـ شوفى.

ـ فين يا واد؟!

ويشاكس الآخرون الحبيبين بأن يخرجوا أياديهم المئات من بين مشبكات النوافذ، وتتوه عينا فاطمة عن يد المحبوب، لكن عربى يتشبث، فيميز يده بعلامة يحددها لها بصوته، فتسرع كل الأيادى بتقليد العلامة.. إن حرك يده حركة، تروح تحاكيها كل الأيادى.. وإن أمسك بمنديل يلوح به، تخرج كل الأيادى بالمناديل تلوح.

يقلد الرجال صوت «عربى»، وتقلد النسوة صوت فاطمة، فتشتبك الأصوات جميعا، ويستمر الصراع ضحكا، وغضبا، ومسامحة، وغلظة، ورهافة، فى انتظار الليل.

يهبط الليل فتنسحب الأيادى، وتسكت الأصوات، لكن العيون تظل خلال الفجوات، بين تقاطع القضبان، ترنو إلى الأضواء التى تنبعث من مصابيح شوارع المدينة ـ التى تبدو الآن ـ فى الظلمة.. بعيدة. ■

حيوانات وطيور

- الكلاب
- القطط
- القنافذ
- العصافير

الكلاب

لما انقطع نباح الكلاب المنكر فجأة، أحسست بالدهشة والارتياح وقلت: خيرا، لعل المطر كشحهم، وقد كنت أسمع صوت هطوله المشتد، وكانت الدنيا بردا قارسا، لهذا خشيت أن أفتح الشباك أو باب الشرفة، ثم إن النزول تحت الغطاء فى هذا الجو كان يخفف من وطأة الشعور بالوحدة والحزن اللذين يبعثهما صوت المطر، وينعش بالدفء ذكريات طيبة قديمة، وأخيلة ترفرف فى أفق بعيد.

لا أدرى لماذا فشلت فى استدعاء أى ذكرى، أو اصطناع حلم يقظة ما، وظلت خواطرى مشدودة إلى لمة الكلاب التى غاب نباحها فجأة.

كانوا خمسة أو ستة أو سبعة كلاب يختفون دوما بالنهار ويظهرون فى عمق الليل، وكان مفترضا أنهم بنباحهم الصاحى والسهر الممتد، يمنحون المكان شعورا بأمان ما، لكن على العكس: صاروا مصدر إزعاج وكرب شديد لكل من يلوذ بهدأة الليل بعد صخب النهار، إذ كان صحن الليل الخالى يأخذ نباحهم المسعور، ويكبره، ويزوده بالصدى والرنين، فيستحيل إلى

غارات من نصال مصطكة تظل تخترق أغشية الأذن وتنغرس فى أعصاب السمع طوال الليل .

كان أقل الأشياء كفيلا بتفجير نباحهم . . . صراع على عظمة وجدها أحدهم فى كوم القمامة وهم عليه مزدحمون، أو مرور كلب منفرد غريب على مبعدة، أو وثبة قطة من سطح إلى سطح . . خربشة فأر فى صدع جدار قديم، أو مروق عرسة من تحت عقب باب، أو دبة صرصور ليل هوى بعدما أرهقه التحويم حول واحد من مصابيح الشوارع .

كانوا ينبحون، ويسمعون صدى النباح فيخالون أن كلابا أخرى تنبح عليهم فهم عليها ينبحون . ينبحون على أى شىء إلا اللصوص الذين جاءوا مرة ورموا إليهم بكسرات خبز دهنت بمرقة ظلوا يلحسونها، بينما الشرفات تسرق، والأسطح تسرق، وعدادات المياه والنور ولمبات الشوارع تسرق . كل الأشياء تسرق حتى لم يعد لنباحهم المسعور من معنى، أى معنى، وهم يواصلون النباح الذى ازداد اشتعالا فى الليلة الأخيرة لأن أنثى بينهم كانت فى موسم التسافد وهم عليها يتصارعون، حتى بعد تمام الاختيار يظلون يتصارعون . . يتزاحمون، ويدسون بأبوازهم، ولا يكفون عن النباح .

بدا أننى سأنام وأحلم أحلاما بهيجة، أو بالأدنى ناعمة الحزن، فى هذه الليلة الماطرة الخالية من النباح، لكننى مكثت طوال الليل أصارع أمواج كوابيس سوداء، فيها لمة من كلاب جربة مسعورة،

تغلى فى دوامات من جرى متواصل ونباح شيطانى وعقر بالأنياب وخمش بالأظافر وتزاحم.

وصباحا، كانت الدنيا مغسولة وبرك المطر فى كل الأماكن، وكنا نخرج من أبواب البيوت رافعين أرجل بناطيلنا ونمشى بحذر على الأرصفة حتى لا نبتل، وعند رأس الشارع انتبهنا إلى سكان أول بيت وقد فتحوا الشبابيك، وأبواب الشرفات، وأطلوا منها يزعقون، ويشيرون بأياديهم إلينا: «من بعيد. من بعيد. لفوا من بعيد». ورأينا على الرصيف لمة الكلاب، فى سلسلة صنعتها أجسادهم المتعاقبة وراء بعضها بعضا، ووراء الكلبة التى كانت مدفوعة بقوة طابور هائج إلى عمود النور، تضمه ملتزقة به، مصعوقة، وهم وراءها مصعوقون. ■

القطط

إيه يا قططا تعول فى قلب الليل الشتوى وأنا سهران متلفف فى البطانية أطل من شق فيها على صفحات كتاب . . تشب على الأبواب وتخربش وتنادى بمواء فيه بكاء ونواح .

(كنت أتشاءم من صوتها ذاك فى أول الأمر لأن ذلك كان يعنى أن أحدا ما سيموت فى الصباح ، ولما مكثت تعوى طوال ليالى الشتاء دون انقطاع ، ولم يمت أحد ، أدركت أنها ظلت جائعة ومبتردة لأن صفائح قمامة البيوت لم يعد فيها فوائض من طعام) .

أنا أيتها القطط ليس أمامى إلا رغيف واحد سآكله بأى شىء لأتمكن من النعاس فى هذا البرد . . لكنها تستمر تموء مواءها الباكى وتخربش ، وأظل طوال الليل أهشها بصوتى : «بس . امش امش» ، وأقذفها بورقة كلما فتحت بابى ، أو أدخل فى روعها أننى سأقذفها بالكتاب فتجرى مختفية ، ثم تعود تموء وتعول .

فى الصباح أعرف أن القطط هذه الأيام قد فقدت شيئا عزيزا من عاداتها القديمة . لم تعد حريصة على النظافة ، كما مضى ، أو أن شيئا ما أصاب أمعاءها وهى فى الصالة . . فى المطبخ . . على درجات السلم . . والمدخل حتى الشارع ، فأجهز لها هراوة من يد مقشة قديمة .

(ربما سأتحول إلى قاتل قطط حين يجن الليل !!) . ■

القنافذ

فى ليالى بدر الربيع، والدنيا فضة فى فضة فى دفء ونسائم عاطرات، كالظلال نخرج من ظلال بيوتنا القابعة فى الأرض الخلاء ما بين المقابر والحقول. نتساحب بلا صوت. حفاة أو منتعلين أحذية. أحذية من المطاط أو جلد الماعز. أيادينا فى لفائف من قماش. وفى جيوبنا من الحصى حفنات.

نتقدم بحذر. بحذر نتقدم على الطريق الترابية المكسوة بغبار الفضة القمرية. حدبات القبور مفضضة هنا. وأبسطة الغيطان مفضضة هناك. والقنافذ بقع داكنة تخرج من جحورها عند أقدام المقابر، تتجه إلى ظلال الشجر وحواف الترع وأطراف الغيطان. جائعة تسعى بسرعة تدهشنا إلى غذاء من الصراصير والضفادع والقواقع وجذور النباتات وشرار الأفاعى إن واجهتها، ونحن فى إثرها نسرع كاتمين أصغر صوت.

نقترب ونقترب ونرمى عليها بحصانا. تسكن متكورة فى الحال. تبدو ككرات جامدة من شوك جامد. ياللحيلة! نتقدم نرفعها ساكنة ونعود. فى ضوء القمر البدر نعود. نطلق من أصواتنا ما كتمنا. وتتصاهل الضحكات.

وفى ضوء مصابيح البيوت نُلقى بكرات الشوك فى طسوت الماء . تنفك . وبرغم تكرار المشهد ذاته أمام عيوننا نحن صيادو القنافذ الهواة، تظل تدهشنا أبواز القنافذ المدببة وعيونها الخرزية السوداء التى تلمع . وتظل تدهشنا أذنابها والأرجل القصار القصار التى نعرف سرعتها، والتى يعيينا دوما نزع أظافرها فهى جارحة وقوية . هذا بالطبع بعد أن نذبحها سهلة بالأمواس وهى طافية فوق الماء . ونسلخ جلودها البارزة الشوك متأففين ونحن نضحك .

ثم . ثم نقدمها غذاء يقال إن فيه شفاء للمحمومين الصفر . .

وفيه الوعد للمتعاجبين من الفتيان . إن أكلوا منه يغزر فى صدورهم شعر كالشوك . . كالشوك يوحى بتمام الجسارة . ■

العصافير

العصافير!

أين العصافير؟

لا أسمع شقشقة العصافير خارج شباكي المغلق، والحجرة محكمة الإظلام، فهل تأخرت في النوم والنهار طالع؟ أم أنه الليل لم يرحل بعد؟

ساعتي معطلة من يوم نزلت بها البحر القريب في أول الصيف، ومذياعي الصغير نفدت حجارته، وهذه المصحة نائية، وأنا الآن أسمع شقشقة العصافير.

فأين العصافير؟

العصافير مكثت ألاحظها على أغصان الشجرة قرب نافذتي بسكن الأطباء شهورا، وعندما أغلقت النافذة زهدا في رؤية المزيد من بؤس المرضى، إذ يتواجدون بالحديقة أيضا، اكتشفت أن جوقة العصافير قد صارت منبهي في عزلة سكني والظلام؛ ففي الخامسة والنصف، وأول ضوء، يروح يشقشق عصفور، بعده تترى الشقشقات وتعلو، تعلو حتى السابعة لحظة اكتمال الشروق، تبلغ

ذروة ارتفاعها والكثافة، ثم تأخذ فى الهبوط والخفوت والتنصل والتمهل حتى الثامنة، تكون كحوارات ما قبل الرحيل ضنينة تتباعد أسيانة، وفى التاسعة تتلاشى إذ تطير العصافير جميعا إلى مواضع قوتها والمساقى، وفى آخر النهار تعود. تثرثر تعبى بشقشقات واهنة تشتد وتشتعل فى لحظة اكتمال الغروب، وتأخذ تخبو كلما هبط الظلام، وفى الحلكة تسكت. وهأنذا لا أسمع شقشقة العصافير!

فأين العصافير

أنهض من سريرى لأفتح شباكى أخيرا بعد شهور طوال، وقد تعلمت كيف أفتحه دون أن أفزع العصافير. ببطء أفتح الزجاج، بحذر أفتح الشيش. لا عصافير على الشجرة. لا عصافير!

أين العصافير؟

الدنيا فجر، والشمس لم تصعد بعد، فأين العصافير؟ أفتش ببصرى عنها بين الأغصان المزدحمة والورق المتكاثف وقش الأعشاش المهجورة، فيفجأ عينى ملتفا يزحف. أجفل مرتعبا، أغلق الزجاج بسرعة، بسرعة، وفى مكانى أتسمر مأخوذا مبهور الأنفاس.

أظل أرقبه بخوف من وراء الزجاج، وهو على الفرع القريب كامن، وألقى بنظرة إلى الأرض فأبصر المرضى فى جلابيب الدمور البيض المصفرة وسط جلودهم الشاحبة المرتخية يهيمون سكوتا وفرادى كالموتى الأحياء، وأرفع عينى إلى زرقة السماء الممتدة علّنى أجد العصافير. لا عصافير فى الزرقة.

أين العصافير؟

العصافير أتذكر شقشقاتها التى كنت بها أفرح وأعرف المواعيد، فتندفع إلى ذاكرتى على غير انتظار أصداء عشرات الأغانى، أغان كثيرة إذ كنا نحب الأغانى . . نسهر جمعا فتسهر على صحبتنا الأغانى، ونلتقى مثنى فتثلثنا بالود الأغانى، وننفرد فتصاحب وحدتنا وانفراد أصواتنا بالحنو الأغانى، نسمع أو نغنى فتصير الدنيا نفس الدنيا ممكنة وأرحب بعد الأغانى .

فأين الأغانى؟

يبهظنى الشعور بالافتقاد، فأهبط بالبصر من انفساح الزرقة السماوية إلى زحمة الأغصان، أراه فأنشغل بكيف؟ كيف أضربه ضربة واحدة قاضية لا تخطئه، كيف؟ وكنت خلالها أفكر فى عودة العصافير . ■

ملامح شتوية

- تحت المطر
- شجر وزهور من البلاستيك
- الريحانة التى فى الركن
- إلى الجانب الآخر

تحت المطر

عندما تمطر، فى هذه المدينة الساحلية، يُختزل العالم إلى بضعة من العناصر القليلة: النور الرصاصى، والأفق المربد، والبحر الغائم، وسور الكورنيش الحجرى الأبيض الخفيض، والسقيفة المتماوجة من مظلات المطر التى يحملها المسرعون فوق الرصيف، ونهر السيارات الجارى فى الشارع، وعمائر الكورنيش المغلقة النوافذ، والمطر الذى يغلف بصوته والصورة كل شىء.

كان الرجل الصغير الجسم، فى بذلته القديمة المقمطة، القصيرة الأرجل والأكمام، على الرصيف، تحت المطر، بلا مظلة.

أخذ الرجل يحاول الانضمام بهيكله الصغير إلى كتلة البشر المسرعين تحت المظلات، مستسمحا، بوجهه المفعم بالابتسام والإيماء والترجى، وبتساؤل عينيه الأخويتين اللتين ادخرتا فى الحدقتين كل ألوان بحر هذه المدينة، وأيضا لون الرمل.

كانت الزحمة المسرعة تحت المظلات تلفظه دائما، تمجُّ نظرة عينيه الأخويتين أكثر من اللازم، وتطرد منظر بذلته القديمة الحائلة المقمطة، فيجد نفسه وحيدا تحت كل هذا المطر.

تسمر الرجل الصغير فى مكانه يقطر بالماء، وراح يتطلع بوجه معاتب وعينين طارفتين إلى وجوه الماضين تحت المظلات.

أخذ يهذى كأنه يكلم نفسه، ثم انشقت له فجأة سقيفة المظلات، إذ انطلق يجرى إلى سور الكورنيش، يعانقه بمشقة، ثم يعتليه.

وهكذا، فى لحظات، أضيف إلى عناصر الدنيا القليلة - فى هذه المدينة، عندما تمطر - عنصر جديد: رجل صغير، ينتصب فوق السور، متشامخا فى وجه المطر، وهو يرتجف من برد الماء وحمى الجنون، يردد: «ولا يهمنا الشتا. ولا يهمنا الشتا».

وكانت الأيادى تمتد مسرعة من تحت سقيفة المظلات، لتدس فى جيوب الرجل أو تلقى تحت قدميه: القروش. القروش. القروش. ■

شجر وزهور من البلاستيك

كانت قد بدأت تمطر، ومع ذلك ظلوا يحاصرون بإلحاحهم صندوق العربة الصغيرة المكدس بأصص وبراميل من البلاستيك تطل منها أشجار خضراء ونباتات بزهور ملونة من البلاستيك أيضًا.

كانوا يتزاحمون ويرفعون أصواتهم ويتدافعون بالمناكب ويندفعون نحو الرجل، فوق العربة، ليحصلوا على هذه الأشجار والنباتات الصناعية، بنقود تبدو كثيرة إذا ما قورنت برقة أحوالهم التى تشى بها مظاهرهم من الخارج.

كانوا، على الأرجح، موظفين صغارا، وربات بيوت، وفتيات فى مقتبل العمر يتهيأن للزواج، وكنت أراقبهم من تحت مظلتى مندهشا.

عندما اشتد المطر كانوا قد حصلوا على بغياتهم، وخلا صندوق العربة من كل الأصص والبراميل المزيفة، وراحوا هم يهرولون تحت المطر، فارين بكنوزهم التعيسة التى فازوا بها: أشجار ونباتات تبدو للوهلة الأولى خضراء وطبيعية، لكنها تستحيل بإمعان خفيف للنظر فيها إلى مجرد تصاوير فجة مفتعلة وقميئة إلى أبعد حد.

بعدما توقف المطر وقد غسل الشارع تماما فأزال كل الأتربة والزحام والضجيج ، بانت واجهات البيوت الصناديق مبتلة ، وكان الرصيف الأسمنتى مبتلا أيضا ، وراح الأسفلت يلمع بالبلل . وكان يمكننى أن أرصد بالعين الشارع الكبير ممتدا حتى نقطة تلاشيه .

واكتشفت - مبهوتا - أنه لم تعد هناك شجرة طبيعية واحدة من كل هذا المدى المليء بواجهات شرائح الألومنيوم البراقة والزجاج المدخن الباذخ . أى شجرة . ■

الريحانة التى فى الركن

صفت الدنيا فجأة، فى يوم جمعة، من أيام الشتاء.

طلعت الشمس كوحيدتى الصغيرة عندما تصحو من النوم، على مهلها، فى يوم عطلة: حلوة، دافئة، وديعة، ومتوهجة الخدود. فأحسست ببهجة، كأننى رجعت من سفر طال، أو أننى شفيت من مرض ألمّ بى.

كان شعورا فياضا بالفرح أن أكون موجودا فى هذه الحياة التى تغمرها هذه الشمس، ففتحت الشبابيك، وخرجت إلى الشرفة، وسقيت الريحانة التى كنت قد نسيتها فى ا لركن.

ولما كنت أنظر إلى الدنيا من هناك، تذكرت ابن عمى، رفيق الطفولة وصاحب العمر الذى كان - فى البيت خلف المقابل - لا يفصلنا إلا عرض شارع صغير وزقاق، ومع ذلك، لم أره منذ شهور، وإن كنت أرى ولده الصغير النحيف فى طابور الخبز دوما.

أخذت أتذكر فى دفء شمس الشتاء الطيبة العطوف كل الأهل والأصحاب، الذين راحوا منهم، والذين بقوا كأنهم راحوا: لا أراهم إلا صدفة، وهم صدفة يروننى.

تذكرت رسائل الأحبة المحتضرة، والتزاور الذى مات، وودنا الذى ينطفى.

ولما كنت أرتدى ملابسى لأخرج، فوجئت بزوجتى تسألنى إن كنت سآخذ الصغيرة معى، أو تأخذها هى معها، وأخبرتنى أنها ستخرج اليوم لتزور أختها - التى أوحشتها كثيرا - فى الحى المجاور. فانفجرت أضحك من القلب، كما لم يحدث لى أبدا منذ سنين.

رحت أهبط الدرج قافزا، ضاحكا، وحدى.

وعدت فى آخر النهار أصعد باسما، تعبا، فرحا بحصاد اليوم المزدحم الجميل: لقد رأيتهم جميعا، ثم إننى سأكتب الرسائل قبل النوم.

وقبلما أضغط جرس باب شقتى، انتبهت إلى دخول الليل المبكر، شعرت بابتراد الجو، ورأيت الظلمة تتكاثف فى بير السلم، فأمسك بقلبى حزن مباغت، وخوف من ليل الشتاء البارد الطويل.

وفرت من عينى دمعة - ما كنت أحسبها هينة بعد هذا العمر - مسحتها بسرعة، ورسمت على وجهى ابتسامة وأنا أضغط جرس الباب. ■

إلى الجانب الآخر

كسرداب جليدى كانت الطرقة الطويلة البيضاء تمتد أمامى. وكان الرجل يسبقنى ببضع خطوات، حيث كان النور الشتوى الكسيف، وضباب أنفاسى المرتعشة، وارتجافى المتواصل. . تحول جميعا دون أن أتبينه بوضوح، وإن كنت قد لاحظت مشيته البطيئة المتعثرة، وسمعت لفظته المؤلمة، على فترات متباعدة شبه منتظمة تتردد «ياه. ياه. ياه».

كانت الطرقة التى تربط بين طرفى المصحة الكبيرة تمتد قرابة نصف الكيلو متر، بحوائط من «الموزايكو» الأبيض تتخلله فراغات فى شكل مستطيلات متوازية، متلاصقة، ومربعات تتعامد عليها بوفرة. وكان السقف الجيرى الأبيض الراشح بالمطر يقطر بماء يوشك أن يتجمد، أخذ يتجمع فى مواضع البلاطات المنخسفة مكونا العديد من البرك الصغيرة الراعشة.

كانت الريح المسمومة بالبرد تهب صافرة خلال الفراغات، حاملة معها صوت المطر وصوت البحر، ورائحة الشجر الذابل فى الملاحات والأسماك التى قذفت بها عواصف البحر لتموت على الشاطئ.

وكنت مشمولا ببرد الريح، والارتجاف المتواصل، والاصطكاك، أراوغ قطرات الماء النازلة من السقف حتى لا تصيب رأسى العارى وعنقى بسهام بردها، وأسرع متقبضا معقوفا، بقدمين غابتا خدرا داخل الحذاء المتثلج المرطوب، أحاول اجتياز الطرقة فى أقل ما يمكننى من وقت، لأنجو بكُلْيَتَىَّ اللتين راح يعضهما البرد، وألوذ بالدفء فى الجانب الآخر.

كانت المسافة تمتد أمامى كدهر ثقيل من الثلج وأنا أقترب من ظهر الرجل، فأتبين أنه بساق وحيدة، يرتدى جلباب النزلاء الخفيف الحسير الأبيض، ويتوكأ على عكازة خشبية بيد، وبيده الأخرى يتساند على حائط الريح، ويردد بعذاب واستكثار مع كل خطوة يخطوها: «ياه. ياه. ياه».

اقشعرّ جلدى وأنا أنظر إلى الرجل إذ حاذيته، دون أن يلتفت، فقد كان عجوزا شديد النحافة، ببشرة سوداء وشعر فضى مصفر أجعد كلون حاجبيه وشاربه الصغير، وكان مبتلا بالكثير من قطرات الماء المرعبة المتساقطة من السقف، التى راح يتلقاها وهو مبطئ عاجز عن الإسراع.

كنت أمضى مترددا وأنا أفكر فى الرجل وكيف أنه سيقضى وقتا طويلا جدا حتى يجتاز هذه الطرقة الجليدية إلى الجانب الآخر، هذا إن لم يقض ـ من شدة البرد ـ قبل وصوله، ثم انتبهت إلى كونه قد كف عن ترديد لفظته المؤلمة، وراح يغمغم.

التفت إليه، مستديرا بكل جسمى المتصلب الراجف، فأبصرته

هناك: يمضى دون أن يتساند على الجدار، وكان يتمايل فى خطوه على العكازة الخشبية والساق الوحيدة وقد بدأ يغنى.. بشجن سودانى دافئ راح يغنى: «زمان، زمان، كنا بنشيل الود، نفس الود. وفى عنينا كان يكبر حنان».

لما أبصرنى الرجل مستديرا إليه أهم بالحركة، تطلع إلىّ ـ دون أن يكف عن الغناء ـ ولوح بيده الطليقة لى أن أمضى، وأخذ يكرر إشارته بإلحاح حتى أمضى وأتركه.

ورحت أسرع موقنا أنه سيأتى على مهل، وقد كان صوته يبلغ سمعى متماوجا مع هبات الريح، يغنى ما يزال: «وهسع رحنا نتوجع. على الماضى اللى ما بيرجع».

كان صوتا يتهلل برغم الحزن الضارب فيه وفى الكلمات، وكان شجيا يعلو فيغالبه صفير الريح ولغط البحر.

يخفت حتى يوشك أن يتلاشى، لكنه مشتدا يعود. ■

في المقهى

- الخرس
- امرأة في المقهى

الخرس

لم أره يقبل مبكرا فى طليعتهم، كما فى كل ليلة، وقد كان الجو قارسا والمطر لا يتوقف فى الخارج، وهم يتقاطرون.. يدخلون منكمشين مبتلى المناكب والرءوس. ويتجهون إلى ركنهم المعهود بالمقهى حيث يتجمعون حول صف من الطاولات المضمومة إلى بعضها بعضا، ينفضون عن رءوسهم ومناكبهم البلل، وينتعشون فى الدفء، ويأخذون فى التحدث معا بالإشارات وبتلعيب الملامح، وتنفلت من بين أحاديثهم البكماء صرخات مبهمة. يقبل عند سماعها «الجرسون»، ويجيل البصر فيهم، وإذ لا يراه على رأس جماعتهم، يشيح بوجهه عنهم، ويمضى.

لقد كان وحيدهم الذى استطاع أنْ يتحكم فى صوته بحيث يحيل صراخه المبهم إلى كلمات.. كلمات كانت تبدو غريبة وبلا معنى فى أول الأمر، إلا أنه يمكن فهمها بقليل من التكرار والتمثيل والإشارات المساعدة، فهم يقولون له بلغتهم البكماء عما يريدون، وهو يترجم تلعيب ملامحهم والإشارات إلى لغته: يصفق فى البدء مناديا الجرسون: آادان (يا حسن)، فيأتى

«حسن»، وينظر ماذا يشربون وماذا يطلبون، ويترجم لحسن: أمداداي (خمسة شاى)، وايدنين إنفا (واثنين قرفة)، وايدينين أواياد اوادى بود (واثنين قهوة زيادة وواحد مضبوط)، ودالاد اداو (وثلاثة كاكاو)، ودالادا داولاد (وثلاث طاولات)، وايدينين دامانا (واثنين دومينو)، وأنبع بونى (وأربعة بورى). وعندما يريدون تغيير قناة التليفزيون يبلغونه ـ بالإشارات ـ فيتوجه إلى رواد المقهى الآخرين بالاستئذان: دا مأتم (لو سمحتم). لكنه الليلة تأخر، وهم فى انتظار مكثوا واجمين.

فجأة انفجروا صخبا، فرحين كأطفال صغار جاء أبوهم بعد غيبة، هذا حالما أبصروه فى مدخل المقهى.. خبطوا بأياديهم فوق الطاولات، ودبوا بأقدامهم على الأرض، وصفقوا، واندفعوا نحوه يتطاير من أشداقهم المشرعة الصراخ، وتكاد وجوههم تتفسخ من فرط الابتهاج، وبادر هو يهدئهم ممتنا، ويبدى لهم عذره: يمسك بصدره متوجعا، ويشير إلى أنفه، ويلمس العنق ساعلا.. سعلات بلا صوت، أو بصوت كالفحيح الباهت، أبانتها لهم اللغة البكماء، فبهتوا.

حاول «حسن» أن يصغى إلى الصوت الذى لعقته نزلة البرد، دون جدوى. وحاول أن يفهم بالإشارة فلم يستطع. عندئذ هبوا يقذفونه بصراخهم وبغضب السحنات المربدة، فهرول مبتعدا، وذهب يلبى نداءات رواد المقهى الآخرين التى تراكمت، وتعالت تحتج. بدوا الآن منسيين ومقهورين وهم يقعدون سكوتا منكمشين حول صف الطاولات الخالية، لا يشربون شيئا، ولا

يلعبون . . يختلسون النظر بحرمان وابتراد إلى أكواب المشاريب الساخنة فى أيدى الآخرين، ويرنون بعيون مختنقة تحمر إلى اللعب المتوهج على الطاولات الآخرى حولهم . ثم إنهم شرعوا فى تصاعد . . يدخنون . ■

امرأة فى المقهى

دخلت المقهى الذى يؤمه الرجال ومعها الولد الصغير، فالتفتت إليها الأنظار لحظة، ثم راحت تختلسها النظرات من وراء صفحات الجرائد وخلال اشتباكات الطاولة والدومينو وحكايات الرجال المحالين إلى المعاش.

كانت فارعة القوم ترتدى (تاييرا) بسيطا أسود وجوارب سوداء وكان وجهها الخالى من المساحيق شاحبا وتطوف به ظلال حزينة، وكان الولد الصغير فى يدها يبدو فى نحو الخامسة، يرتدى حلة ضابط خضراء بأزرار نحاسية وثلاث نجوم نحاسية تبرق على كل من كتفيه، وكان الكاب الصغير الذى يعتمر به محلى بغصنى زيتون متقاطعين من النحاس أيضا.

جلست فى الركن مع الطفل، وعندما ذهب إليها الجرسون لم تطلب شيئا، وانتظرت حتى جاء الرجل الوسيم بقوامه الفارع وشاربه المنكس. كان أنيقا ومنتعشا كأنه أخذ حماما دافئا لتوه بعد أن استيقظ متأخرا من النوم.

أخذ الرجل قهوة مضبوطة وطلب (تمباكا)، وقالت هى بخفوت: شاى، وجيء للولد بفنجان من الكاكاو وكوب فارغ -

أخذت تنقل إليه الكاكاو الساخن ثم تعيده وتنفخ فيه حتى يبرد ولا يؤذى الصغير.

كانت تتحدث بإلحاح وتلاش إلى الرجل وهو يدخن ويشرب قهوته، والولد الصغير يتحرك بقلق الأطفال على الكرسى فيهتز فى يده الفنجان حتى يوشك ما فيه أن ينسكب، عندئذ تسرع إلى ضبط الفنجان بين يديه وتنهره بعصبية وتأمره أن يجلس ساكنا، ورفعت الكاب الذى كان قد سقط على عينيه ووضعته على رخامة الترابيزة أمامها.

راح الولد يحاول النزول وهى مأخوذة بالحديث مع الرجل، فاندلق الفنجان ولوث بالكاكاو حذاءها وجوربها وحذاء الرجل ورجل بنطلونه، ففزعت ومالت محرجة تلتقط الفنجان من الأرض وضربت الولد بالكاب على رأسه متضايقة، وقالت له وهى توشك على البكاء أن يبقى ساكتا، ثم عادت إلى التلاشى تحادث الرجل الذى لبث هادئا مع ذلك.

وقف الولد ساكتا منكس الرأس برهة ثم بدأ يتحرك، ويلعب بين الترابيزات والكراسى ويرفس بحذائه الصغير نشارة الخشب التى تغطى أرض المقهى فتنتشر أمامه كاشفة عن زخارف البلاطات البنية وهو مبتهج بذلك يعاود الرفس.

هب الرجل واقفا فجأة ينادى الجرسون، وبدا غاضبا وهو يدفع الحساب، ثم اندفع خارجا على حين ظلت هى فى مكانها مبهوتة شاحبة، وشردت شرودا عميقا للحظات، ثم فزعت واقفة تتلفت وتنادى: وليد. وليد. يا وليد. ولما بدأ صوتها يختنق انحدرت أصوات اللعب تخفت، وأحاطتها نظرات الشيوخ. ■

فى الميناء

- البمبوطية
- دون توقف

البمبوطية

بينما كان زورقنا يجوب مياه الميناء، شاهدت تجار البحر - البمبوطية - وقد ربطوا زوارقهم إلى أحد الشمندورات الطافية على الماء، وخلعوا ملابسهم وراحوا معا يسبحون، ويمرحون!

اندهشت لمرآهم هكذا، إذ إني لم أرهم قَطّ من قبل إلا متعاركين، متشاتمين، مختلفين على شيء ما وهم يتزاحمون بزوارقهم الصغيرة حول سلالم السفن الراسية في الميناء.. يستبقون على الدرج، ويتصارعون على البحارة الغرباء لبيع بضائعهم والمبادلة.

عندما فتحت جهاز اللاسلكي لأستقبل توجيهات راديو الميناء، علمت بخبر السفينة الجانحة عند البوغاز، وسمعت إشعار توقف الحركة، وانقطاع السفن عن المجيء حتى يتم تعويم السفينة الجانحة وسحبها.

نظرت إلى الرجال وزوارقهم ضاحكا، وقد كانوا يبدون الآن وهم يصخبون: يقفزون إلى الماء.. يغطسون، ويطفون، ويتراشقون بالرشاش مازحين.. يبدون كصغار الدلافين الوديعة المتحابة عند اللعب. ■

دون توقف

أقفز، ويتبعنى مساعداى، من حافة ظهر زورقنا المبتل المنطلق فوق الماء، إلى عتبة السلم المعلق للسفينة الأولى التى تعبر القنال ضمن قافلة الفجر دون توقف، وأصعد لفحصها، وأعطيها تصريحا صحيا بالعبور. ويأمر قبطانها المرح العجوز بشاى وإفطار «للدكتور ومساعديه يا شيف. إفطار جيد وشاى ساخن يا شيف. فقد استيقظوا مبكرين وجاءوا على عجل فى هذا الجو البارد من أجلنا يا شيف».

ـ أوكى كابتن.

ـ ثانكس كابتن.

ـ باى باى دوكتر.

وعلى المائدة وأنا جالس مع مساعدى، يبدأ تقاطر الذين صعدوا توا إلى السفينة، ولا بد أنهم لم يجدوا وقتا ليفطروا على البر مثلنا فهم حولنا يتوقفون: عمال الأنوار والرباط، وعساكر الميناء، وبعض البمبوطية الصغار، يرتعشون من برد النسمة البحرية، ويقتربون من الأطباق التى بها شرائح اللحم:

«إوعى الا يكون دا لحم خنزير يا دكتور» ـ يقول أحدهم، ويمد آخر يده: «أدوقه لك ألا يكون لحم خنزير صحيح»، ويهمهم ثالث وهو يمضغ: «والله طعمه قريب من طعم الخنزير» ويعطى للآخرين كى يذوقوا.. مرة، ومرة، ومرات كثيرة، حتى يتأكدوا أن اللحم الذى يأكله «حبيبنا الدكتور» ليس لحم خنزير يُدخل النار.

ولا ينتهى توجسهم إلا بعد أن تفرغ الأطباق، فينصرفون مسرعين لإنجاز أعمالهم المطلوبة فوق ظهر السفينة المسرعة. ■

مجرد لمس

■ حضن

■ جريدة الصباح

■ وسط الزحام

حضن

عندما يطبق حزن أيامنا هذه على عنقى بيديه السوداوين، أنفلت منه وأفر إلى فرحى الأخير: بنتى.

أحملها بين ذراعى، وأقذفها عاليا فى الهواء تزقزق، زقزقة العصافير، وألقفها تهدل فى حضنى، هديل الحمام. وأضمها فيتلاشى العالم من حولنا.

لكنها تصرخ فجأة. تصرخ صرخة ألم حادة وتبكى، فأرتعب مندهشا: ماذا يا حبى.. ماذا؟ وتجيب أمها مقتربة تضحك: قرصتها. أنا؟! كيف؟! فتشرح لى كيف أنى - لا بد - فى لهوجة اللقف ولهفة الأحضان، ثنيت جلد الصغيرة الرقيق فوق أضلعها، وضغطت وأنا أضم فكانت القرصة!

تبتعد يمامة روحى عنى، وتذهب بخطوها الصغير الجميل لتخبئ وجهها فى الحائط، (زعلانة).

إننى لم أقصد يا حبى، والله لم أقصد.

ولو، فهذا لم يمنع عنها ألما، وليس يعفينى من الذهاب إليها والركوع.

أركع، وأصالحها. ■

جريدة الصباح

وأنا أعبر الطريق إلى الرصيف الآخر حيث الكشك، تذكرت الرجل الأسمر النحيف بائع الجرائد، وكيف كانت ميتته صامتة ومنكسرة، وقلت فى نفسى: لا بد أن الشاب الواقف بمكانه أمام الكشك هو ابنه، وقد كنت أراه يرتدى سترة الرجل الرمادية الكالحة نفسها، والرأس مدسوس فى الكتاب القديم ذاته.

ضايقنى أن أمد يدى بالنقود طويلا ويتجاهلنى الولد، وتذكرت الرجل وكيف كان وجهه الطيب يبش لى، ويحتفى، ويعطينى ما أطلب - أنا زبونه القديم - قبل الجميع، ورحت أزفر محتجا متعجلا الولد، مكررا عليه بضيق: «يا الله يا بنى. يا الله يا بنى»، واستغربت أنه يمسك بالجريدة التى أطلبها، ويده قريبة من يدى التى تمتد إليه بالنقود، ومع ذلك يتردد، ولا يعطينى.

وكمن يتذكر شيئا ذا أهمية ومعنى مر به للتو دون انتباه، رفعت وجهى ملسوعا فاستبنت الملامح فى سمرة الوجه أمامى، وعرفت أننى لم أكن مصغيا لصوت الهمس المتوسل الكسير الذى ظل يلح على سمعى كلما تعجلت: «أنا بنت يا أستاذ. أنا بنت. أنا بنت». ■

وسط الزحام

امرأة نحيفة متلففة بالسواد تحمل سلة على رأسها فى زحام الشارع التجارى الكبير، كأنها ترانى بظهرها، وكأننى أطاردها وهى تهرب منى، إذ كلما اقتربت منها، عفوا، وأنا مسرع فى طريقى، تسرع، تروغ مبتعدة، وتدارى عنى وجهها.

إنها أمى!

أناديها: «أمة. يا أماه» وأمسك بها محاولا إنزال السلة، لأحملها عنها، لكنها تلوذ منى بالفرار. ما أغرب ذلك! لقد كنت معها فى البيت قبل أن يخرج كلانا، ولم يصدر عنى ما يغضبها. ما أغرب ذلك!

ترد يدى بعصبية لتمنعنى من أخذ السلة التى ألمح داخلها «قراقيش حبة البركة» التى أحبها مع شاى الإفطار.

تهتف أمى هامسة، وكأنها توشك على البكاء إلحاحا: «روح أنت يا بنى فى طريقك. روح أنت»، وتدهشنى إذ ترفع صوتها، كأنها تجيب سؤالا لى - لم يحدث - عن مريض أعالجه: «سألت عليك العافية يا حضرة البيه الدكتور. يا أكبر دكتور. علاجك جاب الشفا من أول يوم»، وكانت وهى تقول ذلك تنفض عن

صدر قميصى ـ بسرعة وحذر ـ قشة لا تكاد تبين، ثم وهى نافذة الصبر تهمس، متوسلة، دون أن تفلت السلة أبدا: «يا بنى روح أنت فى طريقك وسيبنى، هدومى مش قد كده يا ضنايه».

أشد من يدها السلة، لكنها ـ هى الضعيفة ضعف دجاجة عجوز ـ تغلب يدى، وتنفلت. لا أعرف هل غيّبها عن عينى الزحام الذى أسرعت تغوص بسلتها فيه، أم حجبها عن بصرى ستار دموع طبيب امتياز صغير، يومها، مضى.. يجرفه الزحام. ■

نفسيّات

- سكينة
- معطف الإخفاء
- الرجل عند البوابة
- «١٦، ٢٠»

سكينة

«سكينة» : نحيفة، وخفيفة، شاحبة، ومتلاشية كشمعة تذوب، وبعينين ساكنتى الصفاء كأنهما من زجاج . إنه المرض الذى يمتص النفوس، ويعزلها، قد امتص بدنها أيضا، وجمد وجهها فلا حزن ولا ابتسام .

سكينة جاءت إلى عنبر النساء متأخرة كثيرا، فى الوقت الذى اكتمل فيه ذهابها إلى هناك . . إلى دنيا الفصام النائية المتنائية : لا تكلم أحدا، فهى لا تعرف الناس، ولا الأيام، ولا الأماكن . فقط تعرف ضلالات نفسها التى هناك، وبها تهذى : إن زوجها القصاب ساحر شرير يمسخ بنيها خرافا صغارا، يذبحهم، ويبيع لحومهم مموهة، فهى لهذا لا تأكل اللحم ولا تشرب المرقة، ولا تقرب الخضار المطبوخ أو الأرز حذرا، وتحيا على كسرة الخبز وقليل الملح وشربة الماء، ثم إنه ـ زوجها القصاب ـ يودعهم أحيانا بطون الحجرات المغلقة أو المقابر قبل الذبح، وهم يصرخون، تسمعهم بأذنيها يصرخون، فلا تترك بابا مغلقا يصادفها إلا وتطرقه، وتشتط فى الطرق، ويأتون بها فى الليل دوما من عند المقابر .

سكينة تأخرت كثيرا، ولم يكن أمام الأطباء لإخراجها ـ قليلا قليلا ـ من داخل دغل نفسها الملتف إلا أن يجعلوها تنشغل بشيء ما، وبأى شيء تنشغل وهى لا تعرف إلا الكنس والمسح، ولا تجيد غسيل الملابس، أو حتى الأطباق؟!

«لا بأس. لا بأس. هيا يا سكينة».

سكينة كفت عن طرق الأبواب، وهذاءات الساحر والحملان ـ بعدما امتشقت المكنسة ـ وتبدَّى لديها ولع مبهر بالنظافة والترتيب.

«عظيمة. عظيمة يا سكينة. أنت من اليوم مسئولة وحدك.. وحدك مسئولة عن نظافة العنبر ونظامه».

سكينة ابتسمت، وخرجت من داخلها إلى دنيا الناس، بسرعة لم يتوقعها أحد، وصارت تعرفهم، وتعرف الأماكن والزمان، وامتلأ عودها كثيرا، ودبت فى زجاج عينيها الحياة، وإن ظلت لا تأكل لحما ولا تشرب مرقة، على حين أوغلت فى الأرز تحتجز لنفسها منه نصيب الأخريات، وبدأت ترى فى العنبر بيتا لها، ثم رأت نفسها صاحبة هذا البيت. أما مقشتها، فقد قصمت عصاها جزأين: جزء به المكنسة التى راحت تكلها لمن تكنس، وجزء صار فى يدها هراوة تضرب بها زميلاتها فى العنبر ضربا مبرحا مبرحا، يدمى ويوشك أن يقتل، إن هن لم يسرعن بطاعة أمر من أوامرها الكثار، التى كانت تصدرها وهى فى العلياء.. مترفعة، متربعة على عارضة النافذة. ■

معطف الإخفاء

أراه الآن، فـأتذكـره . . منذ عـشـرين سنة، فى أيام تلك المدرسة . .

كنا قـد بدأنا نراهق وتحـترق أجسـامنا بهـذى النار اللاذعـة الجميلة، ولـم يكن أمامنا لإطفائها إلا أحلام اليقظة، وأحلام النور أحيانا، والتحقق الأحادى الجانب: نختلى، ونستدعى أيا من النساء اللائى كن يلهبننا، ونغمض عليهن الأعين - حتى لا يهربن من الخيال عرايا - ونؤجج النار، فتؤج تؤج تؤج، حتى تطير شرارا ثم تنطفى. أما هو، فقد كان عملى النزعة: يذهب إليهن بنفسه، بحيلة أدهشتنا، وأسميناها: «معطف الإخفاء».

إذ كان وافر الجسم، أخذ معطف أبيه، متذرعا بشدة البرد، أو حجة الاحتشام، وفى داخل المعطف كان يذهب إلى السوق ليوغل فى زحام النسوة، متهيئا، متأهبا للطعن إن لاح سانحا له خلسة.

كان فى بادئ الأمر يحكى لنا، ثم انقطع عن الحكى، وإن ظل يغزو صامتا، وحيدا، فى الخفاء.

وأراه الآن، بعد عشرين سنة - من أيام المدرسة تلك - قد تغير،

وإن لم يبرح المعطف بدنه، لعله نفس المعطف الذى كنا نراه فيه منذ عشرين سنة، فهو متسخ بلون الأرض، ولون جلده، ولون شعره الأشعث ولحيته السائبة، يرتديه على عريْه الضامر، ويمضى هائما متلفتا فى شوارع المدينة، لصق الجدران كمن يستخفى. يهذى مستريبا بكلمات خافتة، لا تبين، إلى أطياف يراها وحده، فى الخفاء. ■

الرجل عند البوابة

الرجل الجميل الباسم الجالس دوما عند البوابة، يتكئ على منضدة أمامه، يبش لى وأنا أدخل، وينتفض محييا كلما خرجت. لا أعرف لماذا يكرهه الآخرون القدامى؟! إنه لطيف بشوش، وهو يقترب من قلبى، وأنا أقترب منه.

هأنذا لا أجيبه من بعيد، بل أتقدم نحوه وأصافحه كلما دخلت، وأصافحه عند خروجى.. ويلفت نظرى قلمه لا يغادر يمناه والدفتر المليء بالأسماء والخانات، وتنتشر فى سماء ودنا غيمة!

الرجل الكريه القميء، الدودة المحواة دائما عند البوابة.. يسجل لحظة الحضور ووقت الانصراف، لكل من يدخل أو يخرج.. كم أمقته وأود لو أصفعه أو ألكمه.. بل من الأفضل لو أتمكن من ركله بحذائى أو سحقه. ■

١٦، ٢٠

ضرب، ضرب، ضرب، ضرب بكراهية وغل، والأوتوبيس ينزلق على شريط الأسفلت الضيق وسط فزع الصحراء الجهمة المترامية، لكن جوفه مكيف، والركاب فى مقاعدهم الوثيرة لا يشعرون بالقيظ فى الخارج، ولا بالمعركة فى قلب عربتهم، تدور رحاها منذ ساعتين.

منذ ساعتين، عندما تحرك الأوتوبيس على أول الطريق الصحراوى، بدأ الركاب يسترخون فى مقاعدهم متهيئين للرحلة الطويلة. وكان الراكب فى المقعد ٢٠ طويلا بعض الشىء فغاصت ركبته فى ظهر المقعد ١٦ أمامه، وأحس الراكب فى المقعد ١٦ بالنتوء المفاجئ عند ظهره، ففهم، ولم يلتفت للوراء لينبه ٢٠ حتى يلم ركبته، بل مال هو للأمام قليلا ورجع مندفعا بظهره ضاربا ظهر المقعد، فسحب ٢٠ ركبته. وأخذ الأمر يتكرر كلما نسى ٢٠، وأحس ١٦، ثم تحول الأمر إلى أخذ ورد أشبه شىء بلعبة، واستحالت اللعبة إلى اشتباك متواصل بين راكبين لا يرى أحدهما الآخر.

ضرْب. ضرْب. ضـــرْب. ضـــرب بالركب والظهـــر والقبضات والمرافق، ضرب مكتوم ومستور وأعمى منذ أربع ساعات وعشرين دقيقة، وفى الثانية الأولى من الدقيقة الحادية والعشرين تكَّت (سست) المقعد ١٦ تكتين متتاليتين، وفى الثالثة تهاوى منهارا إلى الخلف بالقاعد فيه، على القاعد وراءه. وعندما تلاقت عيون ١٦، ٢٠، قال أحدهما: «لا مؤاخذة»، فرد الثانى: «ولا يهمك».

وكان عليهما أن يكملا الرحلة الطويلة التى تَبَقَّى نصفها شبه مصلوبين على ظهر المقعد المكسور: ١٦ لا يركن ظهره مخافة أن يهوى به، و ٢٠ يمسكه حتى لا ينهار عليه. ■

صدر للكاتب

كتب قصصية:

❊ الآتي

دار الفتى العربي ـ القاهرة ـ ١٩٨٣

طبعة ثانية، ثنائية اللغة (عربي ـ إنجليزي) ـ دار إلياس ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

طبعة ثالثة، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

❊ رشق السكين

مختارات فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .

طبعة ثانية ـ مكتبة الأسرة ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

طبعة ثالثة، دارالشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

❊ الموت يضحك

دار فكر ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

❊ سفر

مختارات فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ .

طبعة ثانية، دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

❊ البستان

دار سعاد الصباح ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

طبعة ثانية، دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

❊ لحظات غرق جزيرة الحوت

الثقافة الجماهيرية ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

طبعة ثانية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٦ .

❊ أوتار الماء

دار ميريت ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

طبعة ثانية ـ دار ميريت ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

طبعة ثالثة ـ مكتبة الأسرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

❊ حيوانات أيامنا

دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧ .

فى الأدب البيئي للأطفال:

❊ آخر حيل الغزلان

كتاب قطر الندى ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠ .

❊ أجمل الزهور

مركز ثقافة الطفل ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ .

فى الثقافة العلمية:

* الطب البديل : مداواة بلا أدوية
كتاب العربي ـ الكويت ـ ٢٠٠١ .

في أدب الرحلات:

* جنوبا وشرقا ـ كتاب إلكتروني ـ كتب عربية ـ ١٩٩٦ .

ترجم من كتبه (في كتب مستقلة):

ـ إلى الألمانية : ذبابة واحدة زرقاء
لينوس ـ بازل ـ سويسرا ـ ١٩٨٧ .

ـ إلى الروسية : أقاصيص مصرية
فاستوشني المناخ ـ موسكو ـ ١٩٨٧ .

ـ إلى الإنجليزية : ذكريات نقطة الانهيار
مطبوعات الجامعة الأمريكية ـ القاهرة ـ ٢٠٠٦ .